5

الدمار النفسي

اقتحم بعض الناهبين الذين أتوا عقب الغزو الأمريكي، البوابات المغلقة لمشفى الرشاد للمعالجة النفسية الطويلة في الجهة الشرقية لبغداد. وبالإضافة إلى سرقة مضادات الاكتئاب، ومضادات الذهان من الجيل السابق، وأجهزة الصدمات الكهربائية، وآلات الخياطة من العلاج المهني، كما أطلق الناهبون نحو ست مئة من ألف مريض في المشفى يعانون انفصام الشخصية المزمن وحالات أخرى مستعصية وحالات ميؤوس منها. وحين كان المرضى يجولون في الحرية المرعبة لبغداد التي عمّتها الفوضى، اغتُصِب بعضهم وقُتل عدد منهم. وجد مئتان منهم أخيراً طريق العودة إلى بيوتهم، أو أعادهم أفراد أسرهم، والجنود الأمريكيون، وبقايا الشرطة العراقية. كان المشفى يقع على الطريق بين الأسلاك الشائكة والجدار الخارجي لمعسكر عسكري أمريكي، بجانب بحيرة صناعية في امتداد كئيب شبه فارغ للمدينة. وفي اليوم الذي زرت فيه الموقع، بدا المنظر كئيباً ومشؤوماً، وكانت سحب الغبار الذي تحمله الريح تحجب أشعة الشمس.

كان الدكتور باهر بطّي، كبير الأطباء النفسيين في المشفى، رجلاً أصلع ضعيف البنية، في الثالثة والأربعين من عمره، مقطّب الجبين، وله شارب خفيف. وقد أخذني في جولة في المشفى والأراضي التي كانت تذكر بالمصحات العقلية في أفلام الأربعينيات. احتشد المرضى واقتربوا: كانوا رجالاً هزيلين، نصف عراة، حليقي الرؤوس، وكانوا يربّتون ظهري، وينادونني باللغة الإنكليزية: «سيدي، صباح الخير، كيف حالك، أنا أحبك، مع السلامة»؛ وكانت النساء دون حجاب تهتفن مرحّبات بابتسامات عريضة، أو تجلسن بغير احتشام على الأرض وتدخّنّ، وتحدّقن في الفضاء. كان سقوط النظام قد سبّب نوعاً من اضطراب الكآبة الآتي للصدمة، قال الدكتور بطّي: ليس هنا فقط، لكن في كل أنحاء العراق. لم تكن هذه الأعراض جديدة على العراقيين. لقد كانوا يعانون منها منذ عشرين أو ثلاثين عاماً. «لقد

تدهورت حالتي أنا»، باح لي الدكتور بطّي: «في السابق كنت تعرف أين يوجد الخطر، وتذهب في الاتجاه الآخر. أما الآن فإن الخطر محيط بك».

في ظل النظام القديم، كان الدكتور بطّي يعمل مقابل دولارين أو ثلاثة دولارات شهرياً، ولم يكن هذا غريباً فيما يخص الطبقة الوسطى التي كانت أوضاعها تتدهور في سنوات الحصار. كان لديه زوج وولدان، كان مسيحي الأصل لكن والده كان شيوعياً ملحداً. وكان يخشى من الخطر المتزايد للأصولية الإسلامية. وكان بعثياً حتى وصول الأمريكيين. لكنه قال لي حين بدأت أتطرق إلى الموضوع: «لا، أنا لم أرتكب الجرائم»، كان الدكتور بطّي يشعر بالانعزال المهني عن العالم الحديث وقد جعل هدفه ممارسة ما كان يعرفه عن المعالجة بالحديث والعلاج الجماعي، في بلد لم تكن الرعاية النفسية فيه تختلف دائماً عن طرق شرطة الأمن. شعر أنني إذا أردت أن أفهم الحالة العقلية للعراقيين، بعد عقود من الاستبداد والحرب، والآن الاحتلال، فإنني أحتاج إلى لقاء مرضاه. كان يقوم عدة أيام في الأسبوع بمعالجة أشخاص يعانون أزمات في مشفى ابن رشد التعليمي النفسي، وهي واحة نظيفة تحت حراسة مشددة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، في وسط بغداد.

أخذني الدكتور بطّي عبر المدينة بسيارته من طراز نيسان 1982، التي كانت أشبه بصندوق معدني قديم فيه رقع صدئة، وزجاجه الأمامي متصدّع. كانت بغداد تعجّ بالسيارات والميكروباصات وسيارات الأجرة ذات اللون الأبيض والبرتقالي التي يقودها سائقون ضعاف البنية، ومتعبون، وشابوا قبل أوانهم، فتحوا نوافذها للهروب من حر السيارة الذي لا يطاق إلى دخان السيارات والضجة وحرّ الشارع الذي لا يحتمل أيضاً.

في الغرفة الأولى في مشفى ابن رشد، كان هناك رجل مستلقٍ على جنبه، يشتكي إلى شخص اسمه أحمد أن السارقين يحاولون الدخول. كان هذا الرجل في السابق موظفاً في وزارة الزراعة. في الغرفة المجاورة -التي كانت شبه فارغة، ومطلية بلون أخضر، وبحاجة شديدة للتنظيف، شأنها شأن الغرفة الأولى- كان هناك شاب يجلس متربعاً على السرير كأنه ينتظر وصولنا. كان وسيماً ذا لحية، وكانت عيناه زرقاوين واسعتين، وله ابتسامة مهذبة. كان اسمه إبراهيم، وكان يعتقد أنه النبي إبراهيم. كان قد اعترف قبل يومين بعد أن حاول طعن قريبه قال لي إبراهيم بهدوء، وهو يشير بأصبعه إلى غطاء السرير: «قال

قريبي شيئاً جعلني أشعر كأن ماءً حارّاً ينسكب علي». لقد قال له قريبه: إن على إبراهيم أن يدافع عن شرف المسلمين وأرضهم بقتل الأمريكيين. «كان عليّ أن أجيبه بأن الأمريكيين لن يأخذوا أرضنا، لكنني لم أفعل. إنه تحدٌّ مزيف، ليس المسلمون وحدهم الذين يعرفون عن الشرف والأرض، الجميع يعرف. والعالم كله أرضي. ليس العراق فقط. العالم كله».

قال والد إبراهيم، الذي كان واقفاً بجانب السرير: إن تدهور حالة ابنه بدأ حين كان مراهقاً في أثناء حرب الخليج الثانية، حين كان وحده في المنزل في أثناء قصف قامت به قوات التحالف. وفي عام 1996، حاول إبراهيم الانقلاب على صدام؛ ليصبح الرئيس؛ وقطع نصف الطريق إلى القصر قبل أن يمسك به والده وينقذ حياته بسحبه إلى البيت. لقد أرهقت حالة إبراهيم جميع أسرته. وقبل بداية الحرب بأربعة أيام عادت إليه الأوهام، وأدخل المشفى حتى سقوط بغداد. كان إبراهيم يؤمن بحكومة عالمية واحدة يقودها الأمريكيون. وقد قال: إنهم أظهروا عدلهم بحماية اليهود، وكان يبدو أكثر سعادة كلما تحدّث. لقد حصلوا على حق أن يكونوا شرطة العالم، وحكموا بعدالة. كانت هذه فكرة نادرة في العراق، لم أسمعها قط خارج مشفى ابن رشد التعليمي النفسي.

في الجناح العام، جلس رجل يبدو عليه الحذر، كان في منتصف العمر، أسنانه متآكلة، وكان يدخن في السرير. كان هذا الرجل هو نبيل رحيم، شيعي من أتباع آية الله محمد باقر الصدر المقتول، عم مقتدى الصدر ومؤسس حزب الدعوة الإسلامي. في عام 1980، دقت المسامير في جمجمة الصدر بعد أن أجبر على رؤية أخته تتعرض لاغتصاب جماعي وتقتل على يد المحققين. قال رحيم: «هذا لا يفيد الآن. لقد مات محمد الصدر، وذهبت معرفته. أريد أن أعيش، هذا كل شيء. أريد أن أعيش».

حيثما ذهب، كان رحيم يرى أناساً يتهامسون عنه، وكان يعتقد أنهم من شرطة الأمن. علّق الدكتور بطّي بقوله: «هذا وهم شائع هنا»، أراني المريض حرق سيجارة على كتفه الأيمن؛ ليوضح فكرته. ثم قال الدكتور: إن الأمريكيين بالنسبة له أقل خطورة من شرطة صدام، لكن في النهاية لم يكونوا أفضل منهم؛ لأنهم أتوا ليسرقوا نفطنا.

لم يكن الخلط بين الذعر المسوغ والأوهام التامة سهل التمييز في العراق. حتى الدكتور بطّي كان يجد صعوبة في الحكم على الأمريكيين. في الأسابيع المضطربة التي أعقبت سقوط

النظام لم يعرف أي طريق يسلك؛ خوفاً على سلامته، ولأنه لا يثق في المجموعات السياسية العراقية الجديدة، ولا بقدرة الأمريكيين على إنشاء مجتمع محترم. كان النهب ضربة فظيعة لحلفائهم الطبيعيين في الشرق الأوسط. وكان الناس من أمثاله الآن يترددون في إخراج رؤوسهم. سأل الدكتور بطّي: «هل نحن عاجزون، أم أن الإدارة الأمريكية تشلّ الوضع حتى تستطيع أن تأتي بأفكارها؟» مرة حضر الدكتور بطّي اجتماعاً مع مسؤولي الاحتلال حول موضوع تشكيل منظمات غير حكومية محلية، واستنتج أنه يحتاج أن يكون أصولياً؛ حتى يحصل على التمويل. قال لي وهو يجلس على مكتبه المتقشف في ابن رشد: «شعرت بالبؤس؛ لأن أولئك الأشخاص يقودوننا، ويحكموننا، لكنهم ليسوا سوى بيروقراطيين»، «بريمر يرى أنه يؤدي عمله، لا يفكر في أنه يصنع التاريخ». ومع ذلك فقد أرسل الدكتور بطّي رسائل إلى بريمر وغيره من المسؤولين الأمريكيين تحمل أفكاراً حول تنمية علم الاجتماع في العراق الجديد، وطلباً غامضاً بتبرئته من عضوية حزب البعث (كانت رتبته أقل من أن يعدّ رسمياً من البعثيين المراد اجتثاثهم). لكنه لم يتلقَّ أي ردّ.

كان الدكتور بطّي مع بعض من زملاء الدراسة في المدرسة اليسوعية الثانوية ينشئ منظمة غير حكومية اسمها مجموعة إصلاح وتنمية بغداد. وكان من عروض المنظمة إنشاء مركز جلجامش للتفكير الإبداعي. كتب الدكتور بطّي في النشرة، ربما بشيء من النقد الذاتي:

يعاني عدد كبير من العراقيين كثيراً من انقطاع الاتصال بالعالم المتحضر، إنهم يعانون عدم القدرة على التواصل مع الآخرين، لقد فقدوا الأمل في المستقبل، وهم يشكّون بكل شيء أجنبي، ولا يتمتعون بالكفاية في أدائهم المهني، ولا يشعرون بمسؤولية كافية تجاه المجتمع، ويفقدون القدرة على ممارسة الحرية، ولا يفهمون التطبيق الصحيح للديمقراطية، ولا يستطيعون التعامل مع العمل الجماعي... إلخ. إن إعادة بناء ما دمّرته الحرب يعدّ جهداً بسيطاً إذا ما قورن بمهمة إعادة بناء الإنسان المشوّه.

كان مركز جلجامش للتفكير الإبداعي سيصبح مكاناً يستطيع العراقيون فيه تعلّم مهارات مثل «التفكير المنطقي والعقلاني»، و«كيفية التحاور ومناقشة الآخرين»، و«أسرار التفاوض الناجح». كان من الصعب التفكير في فكرة أفضل لإعادة الإعمار في العراق، لكن الدكتور بطّي كان يواجه صعوبة في الحصول على المال.

أخذني بسيارته من مشفى ابن رشد إلى ناديه، ثم إلى العلوية الذي كان ذات يوم من الأماكن الخاصة، لكنه أصبح رثاً الآن، حيث لا نزال نستطيع أن نحستي كوباً من الجعة (فقد كان الأصوليون يفجرون متاجر المشروبات الروحية في شارع سعدون)، وبعدها إلى منزل أحد زملاء الدراسة في المدرسة اليسوعية. وفي الطريق، كان الحديث يعود بنا دائماً لذكر الماضي. كان الدكتور بطّي قد التحق بحزب البعث شأنه شأن ما لا يقل عن مليون عراقي آخر، لأجل الترقية المهنية. ومع ذلك كان يعتقد أن أفكار الحزب لم تكن كلها خاطئة. كان الدكتور بطّي مدهوشاً؛ لأنني لم أكن أعلم أن الخطين الأزرقين على العلم الإسرائيلي يمثلان نهري دجلة والفرات، حدود دولة إسرائيل الكبرى، أو أن الهرم والعين المرسومين خلف الدولار الأمريكي عبارة عن رمزين صهيونيين، أو أن الصورة التي كانت تحملها إحدى الدبابات الأمريكية الموضوعة قرب بوابة بابل الأثرية تشير إلى الثأر الصهيوني من الأسر البابلي. كانت نظرته نظرة شيوعي لم يترك الحزب إلا بعد أن أعلن اتهام خروتشوف سآتين: كان يظن أنه حتى عام 1980 كان البعثيون قوة للتقدم، وكان لديهم بعض الأفكار عن الأمة العربية. لكن الثورة أخطأت ببساطة، قال الدكتور بطّي. «كمزرعة حيوانات».

سألت الدكتور بطّي عن الـ 70 عراقياً الذين كان من بينهم 13 يهودياً، شنقوا أمام مئات الآلاف من الناس في ساحة التحرير عام 1969، بعد استلام البعث للسلطة. ألم تكن الثورة فاسدة من البداية؟

قال الدكتور بطّي: «لقد كانوا جواسيس»، وقال بالطريقة التي كان يقول بها كل كلامه، باستهجان لفظي وابتسامة متألمة، كأنه يقول حقيقة غير سارة، لا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاهها: «كان أي نظام وطني سيفعل الشيء ذاته».

ملأت حادثة الشنق عدة صفحات في بداية كتاب «جمهورية الخوف». في رواية مكية، كانت تلك الحادثة فألاً سيئاً بوضوح. وكنت قد نظرت إليها بوصفها مسلّمة يوافق عليها كل عراقي يرحب بالتغيير: كانت هذه الفكرة من الأفكار الثابتة التي أحضرتها معي إلى العراق. ومع ذلك فها هو الدكتور باهر بطّي، وهو رجل مثقف من ذوي المهن العليا، من الأقلية العراقية الأكثر تأييداً للغرب، وعلى وعي جيد بالدمار النفسي الذي سببه صدام، ومتعطش للاتصال بالأمريكيين، ومع ذلك فهو يصر على أن أولئك اليهود الثلاثة عشر كانوا جواسيس. أوقفتنا

زحمة السير، ونظرت إليه. فقابل نظرتي والابتسامة ترتجف تحت شاربه. كنت على وشك على مناقشته، ثم أعدت التفكير في الأمر. لم يكن من المهم أن تكون رواية مكية صحيحة. فأنا في العراق منذ ثلاثة أسابيع، وقد بدأت أدرك أن معظم أفكاري حول المكان لن تكون لها فائدة.

كان العراق قلقاً ومتشنجاً، وكأن التحرير قد أنتج فيروساً في الكائنات الحية، وكأن الحمى كانت تشتعل في البلاد. وكان صوت إطلاق النار مسموعاً ليلاً ونهاراً، وكانت شدته تزيد بشكل خاص بعد حظر التجوال الساعة العاشرة، حين لا يخرج إلا من لايأبه لسلامته. ومن حين لآخر، كانت القنابل أو قذائف الهاون تهز الجدران. كانت قوة النظام الوحيدة هي الجيش الأمريكي، لكن قوافل الهامفي التي كانت تقعقع في شوارع المدينة بسرعة كانت معنيّة بحماية القوة وليس بحفظ الأمن، كما أن هجمات العصابات على الجنود كانت تحدث بمعدل عشرين هجوماً في اليوم في بغداد وحدها.

وحين وصلت في منتصف شهر تموز، كان الصيف يشتعل حرارة. إذ كانت الحرارة تزيد على 120 فهرنهايت في الظهيرة، وفي بعض الأيام كانت تزيد على 130 فهرنهايت. فإذا أخرجت رأسك من نافذة سيارة متحركة شعرت كأنك تشغل مجفف الشعر وتوجهه نحو وجهك مباشرة، أو أنك تقف خلف محرك طائرة نفاثة عند إقلاعها. وإذا لم يوجد ظل، واضطررت للوقوف في الخارج أكثر من عشر دقائق في الضوء الأصفر المُعمي فإنك تشعر أنك بدأت تضعف، وإذا حاولت مواصلة الخروج في أثناء اليوم، فستأتي لحظة نحو الساعة الثالثة تشعر فيها كأنك ثمل، وأنك قد تسقط مغشياً عليك. لم تكن الراحة تأتي إلا بعد حلول الظلام، لكن حتى في الليل كانت الحرارة شديدة لدرجة أن العائلات العراقية كانت تنام على سطوح المنازل، ما لم يجعل إطلاق النار ودوريات الطائرات المروحية ذلك صعباً لشدة الضجيج أو خطراً. قال أحد الجنود مرة: إن إرساله إلى الصحراء العراقية كان أشبه بالوجود في وسط رغيف من الخبز المخبوز، ألقي كعجينة دون أن يكون لديه أي فكرة عما كان يحدث أو أين هو. فيما يخصني، كانت الحرارة العراقية تشبه الاستبداد الحقود الذي لا مفر منه، الذي يجعل كل شيء غبياً وسلبياً.

كانت الكهرباء لا تكاد تعمل نصف الوقت في بغداد بعد الحرب، وكان من الصعب التنبؤ بساعات عملها من حي لآخر. كان العراقيون الذين لا يملكون مولّدات كهربائية يبقون

مستيقظين معظم الليل للتهوية لأطفالهم، وكانوا في الصباح يبدون منهكين. كان مقسم الهاتف متضرراً بشدة بسبب التفجير والنهب؛ لذا كان من النادر إيجاد هواتف تعمل في المدينة وكان القيام بأبسط الأعمال، كالترتيب لعقد اجتماع، يحتاج إلى جهدٍ ضخم (في شهر آب نسّقت إحدى الشركات البحرينية لوضع أبراج بث كافية لخدمة هاتف خليّوي أولية، لم تكن موجودة أيام صدام، لكنها لم تحصل على ترخيص، ولم تستمر إلا يوماً واحداً قبل أن تغلقها سلطة الاحتلال التي كانت لديها شبكة MCI خاصة بها). كما كان هناك نقص في الوقود والغاز السائل، وكانت الصفوف خارج محطات الوقود ممن لا يستطيعون أن يدفعوا أسعار السوق السوداء تمتد ميلاً أو أكثر. كانت الشوارع تغص بالسائقين الغاضبين، وكل منهم رئيس جمهورية بذاته. ولم تعد إشارات المرور تعمل، كما ترك رجال شرطة المرور وظائفهم، وقد قطعت شبكة الطرق الرئيسة الحواجز العسكرية الأمريكية، وإغلاق المنطقة الخضراء الواسعة، مما أعاق جميع الطرق المعتادة. بالإضافة لذلك، مع فتح الحدود، كانت السيارات تتدفق إلى البلاد من الأردن والكويت، في الغالب بشكل غير قانوني. لم يكن هناك شيء أو أحد يضبط المرور، لذا كان كل سائق يضع القواعد الخاصة به، يسابق الآخرين في الشوارع ويدور في الاتجاه المخالف، ويأخذ طرقاً مختصرة فوق الرصيف أو عبر منصفات الطرق السريعة. كان كل تقاطع يمثل لعبة سباق خطرة، أو عقدة كثيفة لمئات المركبات. كان يمكن في وسط زحمة السير أن ييأس أحد السائقين لدرجة أن يخرج ويوجّه السيارات خلفه، وتبدأ العقدة تنحل عدة إنشات في كل مرة. كانت ضجة أبواق السيارات مستمرة. في مشفى المجانين ذاك، لم أكن قادراً على الاهتداء إلى مخطط للمدينة، وهذا يعود في جزء منه إلى أنني لم أقد سيارة، وفي الجزء الآخر لأن شبكة الطرق بعد الحرب لم تكن معقولة. حتى العراقيين أنفسهم كانوا تائهين.

من أولى الأشياء التي لفتت نظري في العراق كانت النظرة التي على الوجوه، فقد لاحظتها حالما عبرت الحدود من الأردن، ورأيت مجموعة من الرجال متجمعين حول أول محطة وقود: فبالمقارنة مع الأردنيين على الطرف الآخر، الذين هم أيضاً عرب، وربما من أفراد قبيلة واحدة، بدا العراقيون فقراء ومهزومين. كانت خدودهم المغطاة بالشعر الرمادي، مجوّفة وجلدية، وكانت عيونهم غارقة، وفي الوقت ذاته سريعة ومترقبة بالطريقة

التي يستخدمها الناس للتنبؤ بالمخاطر واغتنام الفرص المخفية. وقد ذكّروني بالوجوه التي تظهر في الأفلام الواقعية الحديثة عن إيطالية بعد الحرب، والأدوار التي أداها رجال ونساء عاديون يجولون بين أنقاض المدن التي ضربتها القذائف؛ بحثاً عن عمل. حتى «الجاكيتات» البالية التي انتهت «موضتها» منذ وقت طويل، والسجائر المحلية التي تتدلى من شفاههم كانت تبدو كذلك. كان الرجال العراقيون دائماً أصغر مما كنت أخمن عشر سنوات على الأقل، وقد أصبح ذلك نوعاً من النكات الكئيبة. مرة ركبت سيارة أجرة -الفرن الأبيض والبرتقالي المعتاد- وسألني السائق عن عمري؟ وحين أخبرته قال: «اثنان وأربعون عاماً؟ اثنان وأربعون؟» ورسم الرقم بيده على لوحة العدّاد؛ ظناً منه أنه لا بد أن يكون قد أخطأ الفهم للغتي الإنكليزية. «اثنان وأربعون؟» وأشار إلى الساعة الرقمية على العداد التي كانت 5: 41. «هذا واحد وأربعون. أنت، اثنان وأربعون؟» وأخيراً حين قبل ذلك قال بتعجب: «أنت جميل»، ثم قال لي: «أنا عمري ثلاثة وأربعون»، فحان دوري لأصدم، فقد توقعت أن عمره لا يقل عن الستين. وقلت له: إنه جميل أيضاً، لكنه لم يكن كذلك قط. فأشار إلى لحيته التي يملؤها الشيب، وإلى التجاعيد الكثيرة في وجهه، وقال: «العراق ليس جيداً».

ومرة أخرى، قابلت رجلاً عجوزاً يحاول أن يكسب لقمة عيشه ببيع مراوح من القش أمام أحد المطاعم. وعلى الرغم من أنه لا يزال في الخمسينيات، لم يكن لديه إلا سن واحدة. وكان يتمتم: «صدام كلب. لقد أخذ عشر سنوات من عمري». فقد ذهب الرجل إلى السجن لرفضه الذهاب للقتال في الحرب مع إيران. «في عهد صدام، لو كنت أتكلم معك هكذا، لكانت المخابرات قد أتت على الفور وأخذتني». وضحك وهو يرقص من قدم إلى أخرى وبدت السن. «أنا أشعر أنني شاب من جديد. وهذا بفضل الأمريكيين والبريطانيين. أنتم تستطيعون أن تجعلونا جميعاً بشراً من جديد». في الصيف الأول للاحتلال كان لا يزال من الممكن سماع مثل هذه الأشياء.

كانت بغداد مدينة منهارة تضربها الشمس. وكان من الصعب أن نحدد كم من القذارة كانت حديثة، وكم منها جاءت بسبب الإهمال المعتاد. لا شيء في العاصمة تقريباً كان يبدو حديثاً أو خاضعاً لصيانة جيدة. كانت القمامة المكدسة في أكوام كبيرة في الشوارع تبدو أنها لم تُزل يوماً، وقد أخبرني بعض السكان أن أولئك الذين يدفعون للشاحنات فقط هم الذين

يحصلون على الخدمة، بسبب عدم وجود نظام فاعل للنظافة. كان يمكن معرفة المباني المنهوبة عن بعد من النوافذ المكسورة والجدران الخارجية السوداء بسبب النار. وكان عدد هذه المباني أكثر كثيراً من المباني التي قُصِفت في أثناء الحرب، كالقصور وصالات الحفلات في المنطقة الخضراء، أو مبنى الاتصالات الذي يقع على النهر إلى الشمال قليلاً، أو المبنى العالي على الضفة الشرقية الذي كان العراقيون يسمونه «المطعم التركي» الذي كان يؤوي رجال عدي. كان القصف قد أدى عمله بشكل نظيف إلى حد ما: فغالباً ما كان الصاروخ يضرب مركز البناء مباشرةً، مسبباً انفجار السطح والطوابق المتعددة لبناء دُمّر عمداً. كان حطام الحرب، مع الواجهات المثقبة بالرصاص على طول شوارع بغداد الغربية، يضيف إلى المدينة مظهر الانهيار، لكن الضرر الذي أحدثه النهب بدا مؤذياً ومعدياً أكثر، كالفرق بين الجرح العميق وبين تسمم الدم. كان هناك أنقاض في كل مكان، وقد ملأت شوارع الأحياء الشيعية الشرقية والجنوبية الفقيرة برك خضراء من مياه المجاري، وكانت لفات الأسلاك حول المباني المهمة أو نقاط التفتيش الأمريكية، وكانت جدران ارتفاعها أربعة عشر قدماً، قد بدأت بالوصول على متن شاحنات من إيران أو تركية تنصب في وحدات على طول جميع الطرق في المنطقة الخضراء.

كانت هناك طبقة من غبار الصيف تغطي كل شيء، في نهاية اليوم كان حذائي دائماً يصبح بلون واحد هولون تراب بغداد. بدت المدينة قبيحة التصميم. وحده نهر دجلة لا يزال يتمتع بنوع من العظمة. كان النهر بعرض عدة مئات من الياردات، وعلى كل من جانبيه جدار حجري ينحدر نحو الأسفل بزاوية منفرجة، وتقطع الجدار أدراج كل مئة قدم تقريباً، من الشارع إلى الماء. لم تقطع كل أشجار النخيل والأوكاليبتوس، وبينما كانت الشمس تغيب خلف القبة السطحية للقصر الجمهوري في المنطقة الخضراء والحرارة تهبط قليلاً، كان من الممكن أن تشعر بالرومانسية الرائعة للنهر. لكن السباحة كانت ممنوعة، وكان لا بد من إطلاق نار تحذيري من قبل الجنود الأمريكيين لإخافة الصبيان العراقيين الذي لا يعرفون أو لا يهتمون للقواعد الجديدة وإبعادهم. وكان عدد من السابحين الذين يتجاهلونها يُقتلون.

في الأيام الأولى كنت أشعر باستمرار أنني أنجذب إلى حديقة الحيوانات في بغداد. كانت في وسط حديقة الزوراء، وهي مستطيل من أشجار الأوكاليبتوس المزينة والعشب الجاف

تقع مقابل شارع 14 تموزمن فندق الرشيد ومركز مؤتمرات بغداد، وهما المبنيان الوحيدان في المنطقة الخضراء اللذان لا يزال بإمكان العراقيين الوصول إليهما. وفي الطرف الآخر للحديقة من حديقة الحيوان كان نصب الجندي المجهول، صحن طائر قبيح كبير جدًّا من الإسمنت، وبجانبه ساحة الاستعراضات العسكرية، على كل من جانبيها سيف عملاق، وكان السيفان يتقاطعان في المنتصف. كان هذا الجزء من المدينة مهيباً وواسعاً ومهجوراً. وقد كان كذلك أيام حكم صدام - فهذه كانت قصوره، وتماثيله، وعموماً كان العراقيون العاديون لا يسمح لهم بالاقتراب إلا إذا كان لديهم عمل رسمي - لكن حديقة الحيوان كانت مكاناً شعبياً للعائلات، يأتون إليها للتنزه في المساء أو أيام الجمعة.

أما الآن فهي خالية، إلا من شركة المهندسين العسكريين التي كانت تقوم بمشروع متواضع لإعادة الإعمار، والموظفين العراقيين، والحيوانات. زرت حديقة الحيوان عدة مرات، وكانت التجربة مزعجة في كل مرة. كانت الحديقة هي المكان الوحيد في العراق الذي يبدو فيه أن النظام القديم لا يزال موجوداً. فقد كانت الأقفاص تبدو كزنزانات السجن. ففي أحدها دب أعمى شوّه صدره واستلقى يعاني من مرض نفسي. وفي القفص المقبل كلاب وجراء استلقت لاهثة أمام أطباق الماء الوسخ، كتب على اللافتة: «ثعلب SPP كلب. الموطن الأصلي: بريطانية». هزت الجراء ذيولها عندما اقتربت من القضبان، لكن الكبار لم تعد تعلم منذ زمن أنها كلاب. وقد علمت أنها كانت في حديقة الحيوانات؛ لأن صداماً يحب الكلاب، على الرغم من أنهم كانوا يطعمون بعضها للأسود، حين نفد مخزون الطعام في أثناء الحرب.

قلّلت الحرب من عدد الحيوانات بشكل كبير، من 650 قبل الغزو إلى 13 فقط. فقد ذهبت القرود والطيور والعظاءات والنعام: أما الكائنات التي بقيت فقد نجت من المعارك حين سقطت المدينة وكانت إما خطرة جدًّا، أو لا تستحق النهب. وقد وجد جنود فرقة المشاة الثالثة الذين احتلوا حديقة الحيوانات في نيسان بابوناً طليقاً على الأرض: ثبت أنه غير مؤذٍ لهم، لكن حين تم إحضار أحد حراس الحديقة الذي كان مختبئاً في مكتبه، اهتاج الحيوان وهاجمه؛ لذا كان على الجنود أن يطلقوا النار على البابون لإنقاذ البعثي. وبعد أشهر قليلة، حين كانت مجموعة من الجنود يشربون الخمر بعد ساعات عملهم، ويلهون قرب قفص

النمـر البنغـالي، بدأت يد أحد الجنـود تختفي في فم النمر. فأطلق رفاقـه النار على النمر وقتلوه.

كان رجل يدعى بريندان ويتينغتون جونز من جنوب إفريقية، من مجموعة محافظة تدعى ثولا ثولا زولولاند، يتعاون في الترميم مع نقيب مرهق من فرقة الهندسـة. شـعر كلا الرجلين بالإحباط بسـبب العاملـين في حديقة الحيوانات الذين كانوا يخافـون من اتخاذ أي قرار في غياب السـلطة المألوفة. أما العراقي الوحيد المسـؤول والكفء فقد طرد؛ لأنه بعثي. لذا فقد تولى الأجانب القيادة. قال ويتينغتون جونز: «يجب أن يربح الجيش، شـيئاً كبيراً وواضـحاً»، «الحديقة كالرئة الخضراء في وسط بغداد - إنها المنطقة الوحيدة الخضراء. وستكون جيدة للعلاقات العامة، وتقدم للأطفال شـيئاً يفعلونه». أنفقت سلطة الاحتلال مئة ألف دولار على الترميـم الأولي، وعادت حديقة الحيوانات لتفتح أبوابها للعامة في أواخر تموز، باسـتعراض موسيقي عسكري كبير، على الرغم من أن التعديل الذي تم فيها كان لمجرد إظهارها بمظهر عصري، لكن الأقفاص لا تزال تبدو سجناً للحيوانات. وفي زيارة مقبلة وجدت المكان مهجوراً تقريباً. فقد كان موقعها في قلب المنطقة الخضـراء، محاطاً بنقاط التفتيش الأمريكية، مما جعلـه مخيفـاً لكثير من العائلات، كما أن السـاعات التـي تفتح فيها الأبواب، من العاشـرة حتى السادسة، التي تم تحديدها لأسباب أمنية، كانت حارة لدرجة لا تحتمل. جمعت حديقة الحيوان بين قسوة النظام القديم وظلمه، مع بعض من غباء النظام الجديد ولا مبالاته.

كانت المدينة تبدو منكوبة أو تحتضـر، أو كأنها قد خرجت من مرض يهدد حياتها. لكن منذ الساعات الأولى، تحت السطح المتداعي للأشياء، كنت أدرك قوة بغداد. لقد جاءت من الخوف المسـتمر من العنف، ومن التجارب المهمة التي تحدث في كل لحظة من كل يوم: كان العراقيون والأمريكيون يدفعون العراق معاً نحو شيء غير محدد وجديد. أذكر عبور الحدود الأردنية بالسـيارة عند شروق الشـمس ورؤية أول جندي أمريكي عند أول نقطة تفتيش على الجانب العراقي، وكيف ذهلت أن جميع النقاشات المجردة حول فكرة الحرب قد قادت فعلياً إلى هذا، كان الجندي يرتدي لباساً مموهاً في الصحراء الحمراء غرب العراق، ويتكئ على سيارته قائلاً: «هل يبدو يوماً جيداً؟ من أي جزء من البلاد أنت؟».

قبل مغادرة العراق، تناولت العشاء في بروكلين بيسترو كالمعتاد مع بول بيرمين. وكان باستمرار يشبّه الوضع في بغداد بعد عصر الاستبداد ببراغ عام 1989. وكنت باستمرار أصرّ على أن العراق مختلف بشكل كبير: فهو تحت الاحتلال العسكري، وفيه عنف أكثر بكثير، وشعبه مصدوم أكثر، ويعيش في بيئة أسوأ بكثير. ومع ذلك كان من بين الأسباب التي جعلتني أرغب في الذهاب أنني أردت أن أرى الثمار السياسية والثقافية التي قد تتمخَّض عنها مرحلة ما بعد صدام. كنت أتوقع أن يشارك الشباب في أحزاب سياسية، ويحضروا محاضرات عامة، ويقوموا بقراءات شعرية ومهرجانات أفلام. كنت أتوقع رؤية أشياء مثيرة.

كان معرض الحوار واحة بوهيمية، قرب السفارة التركية، في حي كان بعثياً في الأدهمية شمال بغداد. وقد افتتح بعد حرب الخليج، ولأن صاحبه قاسم السبتي كان نحاتاً صاحب مزاج، وأرضى الشرطة السرية بالسمك المشوي والويسكي، فقد تركت السلطات المعرض وشلّته الضيقة وشأنها. قال لي المالك: «كانت الحكومة تضغط على المسارح والكتّاب»، «أما الفن البلاستيكي فلم يكن هناك ضغط عليه؛ لأن الفن المعاصر لغة راقية. لم يكن البعثيون يفهمونها. كانوا يفهمون الواقعية فقط. لذا كنا نتحرك بحرّية في جزيرتنا هنا».

كانت الرسومات المعروضة في معظمها تجريدية وتأملية. فن المهجر الداخلي. وفي المقهى الخارجي، حيث كان الفنانون والشعراء والرسامون يجلسون لتناول الشاي، سألت أستاذاً في الهندسة المعمارية من جامعة بغداد: أين أستطيع أن أرى في المدينة مسرحية أو فيلماً؟ فأجاب، ليس هناك مكان تستطيع فيه رؤية ذلك. «أنت بحاجة إلى أمن؛ لتستطيع القيام بالخطوة الآتية». الأمن، والكهرباء، والحد الأدنى من الثقة في المستقبل. «لقد أفسد صدام طريقة التفكير. والآن لا ترى شيئاً، في بغداد. كل شيء قد فسد، وما تراه هو فوضى لا تمثل شيئاً؛ لأنها ليست الطريقة الطبيعية التي يعيش بها العراقيون».

لاحظت أن العراق المحرّر لم يبدُ مكاناً سعيداً جدًّا.

قال الأستاذ: «لا أحد يستطيع أن يأتي إليك بالسعادة هكذا»، كان لديه نوع من الصفاء السوداوي. «إنها لا تأتي من الله. هل سمعت الأغاني العراقية؟ إنها حزينة جدًّا. لماذا؟

لأنها كذلك منذ وقت طويل طويل. حتى لو كنت تتحدث عن الحب، وعن النساء الجميلات والأشياء الجميلة، فإنك تنظر إليها على أنها حزينة. لكنها مؤثرة: فهي تؤثر في الآخرين».

سألني الأستاذ عما خطط له الأمريكيون للعراق. فأخبرته بصدق أنني لا أعلم:

قال لي، وقد أصبح نشيطاً فجأة: «أعتقد أنك تحتاج إلى سنوات؛ لتفهم العراقيين»، فمثلاً، كان نصف العراق حضرياً ونصفه بدوياً. كانت الشخصية الحضرية ظاهرة حولنا في كل مكان. أما الشخصية البدوية فقد أتت من الماضي السحيق، وكانت هي التي تسبب المشكلات لأمريكة. والشخصية البدوية تفسّر لنا لماذا يصر العراقيون: في البادية، عليهم أن يصرخوا؛ حتى يكون صوتهم مسموعاً. «لقد بذلتم الكثير من الجهود، بماذا؟ حين تأتون لا تفهمون الناس. لا أعلم لماذا. والجميع يسأل السؤال. أيها الجيش، إنه أمر سهل؛ لديكم قوات معقدة دقيقة. لكن ماذا سيكون بعد ذلك؟ هذا هو السؤال. يجب أن يكون لديهم خطة». بدا محتاراً بصدق مما رآه منذ سقوط النظام. «أي شخص يعيش في العراق عليه أن يفهم العراقيين، عليه أن يغير نفسه؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش دون لغة مشتركة بيننا. عليك أن تدفع، وعلي أن أدفع أيضاً» ابتسم الأستاذ ووقف ليغادر. «وصدقني، جميع العراقيين طيّبون ولطفاء وبسطاء».

لم يكن هناك استقبال بالزهور في بغداد. كان ذلك مبكراً جدًّا، والأمور لا تزال غير مستقرة. وربما لم يكن العراقيون أنفسهم مستعدين، أو لم يكونوا قادرين بعد. وفي أحد الأيام، بينما كنت أسير بالسيارة في شارع سعدون في مركز المدينة، لاحظت مسرحاً اسمه الناصر. في الداخل جلس المخرج، واسمه عبد الإله كمال يدخن مع مجموعة من الممثلين في المكتب الأمامي. كان كمال أبيض الشعر زهري البشرة، له شارب أشعث ونظارات للقراءة تتدلى حول عنقه. كان على وشك استئناف أداء المسرحية الناجحة التي كانت تعرض حتى 9 نيسان التي أسماها «خيال نووي»، مع عنوان رأيت بعيني، لم يخبرني أحد. وكانت جميع المقاعد التي تتسع لألفي شخص تمتلئ. فسألته: لماذا لا يقدم شيئاً لم يكن يستطيع تقديمه تحت حكم صدام، شيء جديد مثلاً، هجاء للاحتلال. فرفض الفكرة قائلاً: «لا نستطيع أن نجد قصة محزنة أكثر من الشارع لنجعله مسرحية. مسرحية تعرض في الشارع. بغداد كلها مسرح. ونحن الجمهور. فنحن لا نحتاج لعمل مسرحية».

فقلت له: لكنها ستجمع البيت. وستعطي العراقيين شيئاً يحتاجونه، ستعطيهم الفرصة لرؤية تجربتهم المشتركة عبر رباط الفن.

سأل المخرج: «هل أستطيع أن أتحدث عن بريمر وبوش؟، هل تستطيع أن تعطيني ضمانات؟» وذكر صحيفة أغلقت؛ لأنها تحرّض العراقيين على قتل الأمريكيين. حاولت أن أشرح أن هذا شيء مختلف. وفي النهاية لم أستطع أن أقنع كمال بأن مسرحه لن يُغلق، لكني شعرت أيضاً أن فكرتي جعلته غير مرتاح لسبب أعمق. لقد طلبت تصرفاً يحتاج إلى شجاعة خيالية خارجة على قدرته. وفي النهاية باح لي كمال بأنه قد كتب بالفعل مسرحيته الآتية. واسمها ماسونيكا، وهو اسم يقاطع بين «أمريكة» و«ماسوني» (وهي كلمة كثيراً ما تتردد في العراق لها علاقة غامضة بالصهيونية). وقال: إن المسرحية ستعرض «الشيء المخفي الذي حدث في أمريكة في 11 أيلول».

حين كان صدام يحكم العراق، كانت مكاتب الاستخبارات التابعة لحزب البعث تتعقب باستمرار الإشاعات التي تتجه إلى الشوارع. كانت الوثائق تجمع سنوياً في أربعين مجلداً ثخيناً مما يدل على هوس دولة الشرطة. «سري للغاية - إلى الرئيس عبر مكتب مدير مجلس الأمن. موضوع الإشاعات»، هكذا بدأ أحد التقارير المكتوبة بعد عدة أسابيع من إفراغ صدام للسجون في تشرين الأول 2002. «لقد تم إطلاق سراح السجناء السياسيين، وإعدامهم من قبل الحكومة العراقية». وأعلنت وثيقة أخرى: «إنها تدور حول صراع بين نجلي الرئيس، حفظه الله. وهذا الخلاف عن تسلُّم السلطة. وقد أصيب قصي صدام حسين. تمت مناقشة هذه الإشاعة في جامعة بغداد في كلية إدارة الأعمال. 6 تشرين الأول 2002». ثم ذكر اسم المخبر الذي كان مصدر التقرير. وقالت إشاعة أخرى، مصدرها الحلة: إن آرييل شارون سيقوم بتدمير بيوت فلسطينية في جنين لإضعاف الاقتصاد العراقي، وإن صداماً سيعطي لعرب غير عراقيين، كانوا يعيشون في العراق قبل انتفاضة عام 1991 سيارات بصفة هدايا، وكانت تعرف باسم «ورقة الخزينة والخيانة». كان ملك الأردن يسمح للمعارضة العراقية بالدخول من بلاده ويقدم لهم الدعم. سيأتي الغزو الأمريكي في يوم إعادة انتخاب صدام لإنهاء الاحتفال. سيأتي الغزو يوم 11 أيلول 2002، بعد سنة من الهجمات في أمريكة. ستهاجم أمريكة جميع المساجد في العراق، بحجة أن الحكومة العراقية تخبئ فيها أسلحة

الدمار الشامل؛ حتى لا تلفت الانتباه. سيهاجم الأعداء العراق بسلاح جديد، نوع من الغاز سيصاب العراقيون عند استنشاقه بغيبوبة تستمر ثماني ساعات. سيكون الغزو مختلفاً تماماً عن العمليات العسكرية الأخرى، وسيكون على مرحلتين: إحداهما سرية والأخرى علنية. سيحدث الغزو في ثلاثة أماكن، لكل واحدة منها اسم مستعار: في الشمال «قفزة الأرنب» وفي الجنوب «حركة السلحفاة» وفي بغداد عملية خاصة «قلع الأضراس».

نشأت معظم الإشاعات في أحياء فقيرة. وكانت بشكل ما تعبيراً طبيعياً عن تجربة الناس الذين يعيشون تحت توتر شديد بانتظار الحرب والخوف من قواعدهم - من التحمل بلا قوة وسط العنف المستمر. والكثير من الإشاعات كان حزب البعث قد زرعها؛ لذا فقد كان صدام، بعد أن حوّل الشعب إلى جواسيس، يتعقب تقدم الجراثيم التي أدخلها بنفسه إلى جسم السياسة. كان يرتبط مع شعبه بنظام مغلق، دائرة الخوف. كانت النجاة تعتمد على تصديق أن كل شيء ممكن، وكلما كان الشيء أقل احتمالاً، كان أكثر احتمالاً. كانت محاولة العيش خارج الدائرة جهداً خطراً، أو حتى قاتلاً، لم يكن يقدر عليها إلا الناس الاستثنائيون. يمكن أن يقول صدام: «كل عراقي بعثي»، وحتى بعد أن خرج من المشهد، اعترف كثيرون بأنه بقي يسكن أرواحهم. أما المرأة العراقية التي أرتني الإشاعات، وهي امرأة مطّلعة، لها عقل فنان، كان جميع أفراد أسرتها قد ذهبوا إلى الخارج، وبقيت هي مع زوجها وأطفالها، فقد ظلت تقسم وتحاول أن تسحب المجلدات من يدي وتقول لي: «آسفة جورج، أنا أكره الوثائق الحكومية. تخيل أن تعيش هكذا ثلاثين عاماً. تنجو من الموت».

لم يمضِ على وجودي في العراق أسبوعان حين قتل ابنا صدام: عدي وقصي في ملجأ بالموصل بعد تبادل لإطلاق النار مع الجنود الأمريكيين. كان عدي بالذات يملك مزاجاً قاسياً لدرجة مرضية. وقد أخبرني أحد حراسه السابقين، وهو رجل قوي ذو طبيعة طيبة اسمه عماد حمادي، قصة ليوضح لي معنى العمل معه. كان عدي يلهو في بركة السباحة في أحد الأيام مع مجموعة من الشابات. فاستدعى عماداً الذي كان يتجول قريباً ببدلة السباحة؛ ليحضر له كأس ويسكي. وما إن أعطاه عماد الكأس، حتى دفع عدي برأسه تحت الماء وثبّته بين ركبتيه. عرف عماد أنه إذا أبدى أي مقاومة فستكون نهاية حياته، لكن اللعبة استمرت واستمرت، نصف دقيقة، دقيقة، حتى شعر أنه على وشك الموت بأي حال. استسلم عماد

لقدره، لكن حين بدأ يفقد الوعي لوّح بيده غريزياً من جهة إلى أخرى؛ ليشير إلى أنه لم يعد يستطيع الاحتمال أكثر. فشعر بأنه تحرر، وحين خرج إلى السطح كان عدي يضحك مع صديقاته، قال عدي وأصر على أن يتناول عماد الويسكي معه: «أنت رجل جيد»، ربما كان عدي أكثر رجل محتقر في العراق، حتى أكثر من والده الذي ارتقى إلى ذروة السلطة بنفسه على الأقل، واحتفظ بتلك المكانة بالسيطرة القمعية.

في الليلة التي حدثت فيها معركة الموصل، كان هناك كثير من إطلاق النار الاحتفالي في بغداد لدرجة أن الدورية الأمريكية التي كنت برفقتها قرب النهر اضطرت أن تلغي مهمتها وتعود إلى القاعدة، فقد كان إطلاق النار قريباً بشكل خطر. لكن في الأيام المقبلة، بدأ العراقيون يتساءلون إن كان عدي وقصي قد ماتا بالفعل؟ فالجثتان اللتان قُدّمتا لوسائل الإعلام كان قد تم إصلاحهما تجميلياً بطريقة جعلتهما تبدوان شمعيتين وغير حقيقيتين. وقد سمعت نظريات كثيرة من عدد من العراقيين. فقد أخبرتني امرأة كانت تشغل منصباً رفيعاً في اتحاد الصداقة الأمريكية العراقية بأنها لم تصدق ذلك. «لم يرَ الناس أي دليل يؤكد أنهما هما»، قالت لي: «الحمض النووي، الأسنان هل يمكن أن تعرّفهما بالفعل؟ فالصور يمكن أن تكون مفبركة. سمعت أن البيت الذي قتل فيه ابنا صدام هو بيت شيخ معارض لصدام. فلماذا يستقبلهما؟» ثم كان هناك الصمت المحير لوالدهما. «فلو قتل أحدٌ ولديك، آسفة، هل تجلس وتقول: حسناً، لا مشكلة؟ فلماذا لم يفعل صدام شيئاً؟» واقترح زميل لها أن بوش كان يحاول تأمين إعادة انتخابه. سمع سائقي أن عُدياً قد هرب إلى إسبانية بعد سقوط بغداد. أما صائغ عدي الذي التقيته في حفلة بعد عدة أيام، فلم يصدق أيضاً. كان قد وضع ماسات بقيمة مئات الآلاف من الدولارات في الخواتم، ولو أنقص .000001 قيراط لكان قد قتل. لقد قبل حقيقة جميع جرائم صدام وعدي. ومع ذلك، إذا جاء عدي وطلب منه المساعدة، قال الصائغ: إنه لا يردّه. كان عدي لديه صفات جيدة: فقد كان صريحاً؛ إذا لم يحبك فإنه يقتلك، لكن إذا أحبك، فإنه يعاملك معاملة جيدة. لم يسئ عدي شخصياً للصائغ، وكان من الشرف ألا يسلّمه. كان رفضه أن يصدق الأخبار تعبيراً عن أمنية: إذا قتل الأمريكيون عدياً وقصياً بهذه الطريقة فهذا مهين. وفي رأي آخرين كان هذا يعكس الخوف: فلا بد أن يعود الوحشان الشابان ويوقعا مزيداً من الألم. وفيما يتعلق بالجميع كان ذلك من

قبيل تشكيك الناس الذين لم يعرفوا إلا ثقافة رسمية من الأكاذيب. اقتنع رجل عجوز، بعد أن شاهد بلير على شاشة التلفاز يناقش الموضوع، بأن هذا صحيح؛ لأن بلير كان يبتسم بطريقة لا يمكن أن تكون ملفقة؛ كان العجوز قد تعلم قراءة الحقيقة من تعابير الوجه، بعد قضاء سنوات في الحرب العراقية الإيرانية، يشاهد صداماً على شاشة التلفاز.

ومع الوقت، حين لم يعد عدي وقصي للظهور، وأصبح موتهما حقيقة مقبولة، تحول غير المصدقين إلى مصدقين دون أن يتوقفوا حتى لإعادة تقويم شعورهم بالقدرة على الحكم على الأمور.

«إنهم لا يملكون القدرة على ممارسة الحرية»: هذه العبارة من عرض الدكتور بطّي لمركز جلجامش للتفكير الإبداعي، قد أبرزت حقيقة عن العراقيين في الأشهر التي أعقبت 9 نيسان. وقد ساعدت في شرح أحد أكبر الألغاز بعد سقوط التمثال: لماذا هي قصيرة جدًّا لحظة الشعور الجيد. وجد آلاف الجنود، والموظفون، والمتعهدون، وعمال الإغاثة الذين تدفقوا إلى العراق لإعادة إعماره أنفسهم في وضع البحار الأمريكي في ..... **ميلفيل «بينيتو سيرينو»**، الذي هتف بالإسباني الذي أنقذه من تمرّد العبيد، «لقد نجوت، لقد نجوت: ماالذي ألقى هذا الظل عليك؟» لقد أخبر العراقيون أنهم أحرار، وهم يتوقعون أن يكونوا أحراراً، وقد انتظروا سنوات؛ لكي يصبحوا أحراراً، لكنهم ما زالوا لا يشعرون بالحرية. وهكذا حل ردّ الفعل على الفور تقريباً. وقد قالت لي عقيلة الهاشمي، الدبلوماسية السابقة التي أصبحت في تموز واحدة من ثلاث نساء تم تعيينهنّ في مجلس الحكم الانتقالي: «نحن لا نزال تحت تأثير الصدمة، لازلنا خائفين. لا نزال نعيش بالطريقة نفسها، كان عمري خمس عشرة سنة في عام 1968 والآن عمري خمسين سنة. أترى يمكن أن تتخيل؟ هل يمكن أن أتغير في يومين، في شهرين، في سنتين؟ نحن بحاجة إلى إعادة تعليم، وإعادة تأهيل». وقالت: إن العراقيين الذين طالما أرادوا الحرية، «كانوا سعداء بعد سقوط النظام. ثم كان هناك عمل تخريبي وهذه الفرحة، ضد هذه السعادة. إنها لم تتحقق، كما ترى. هذا الشعور الذي تشعرون به -آه، نعم!- لكنه لم يتحقق بعد ذلك. هذا محبط».

كان «العمل التخريبي» عدة أعمال: تفشي الفوضى، وعودة العنف البعثي، وحقيقة الاحتلال، لكن أيضاً الشعور المرسّخ بالضعف. وقد جاء معه توقع أكبر من اللازم لما تستطيع

القـوة العظمى تحقيقه، وقد زاد أداء الأمريكيين من الاضـطراب في عقول العراقيين. وإذا كان صدام قد استطاع أن يصلح مرافق البلاد في أثناء أشهر قليلة من نهاية حرب الخليج، بعد كل الدمار الذي أحدثه قصـف الحلفاء، فلماذا لا تزال شـبكة الطاقة تتدهور بعد أربعة أشهر، حين تركوا البنية التحتية سليمة هذه المرة؟ قبل الحرب بشهر، أعلن بوش في خطاب حالم في معهد المؤسسـات الأمريكي أن العراق سيصـبح أنموذجاً للديمقراطية في الشـرق الأوسـط. وقد سـمعه العراقيون، وكما قال لي كهربائي غير متعلم اسمه طارق طالب: «كنا نتوقـع أن يحـوّل الأمريكيـون البلاد إلى مثـال، إلى أوروبـة أخرى. ولهـذا لم نقاوم. ونحن مصدومون، كأننا عدنا مئة عام إلى الوراء».

سـرت إشاعات بأن القوات الأمريكية كانت تقطع الخطوط الكهربائية لمعاقبة العراقيين على شن الهجمات، وأنهم قد أحضروا كويتيين مع قوة الغزو للتحريض على النهب؛ انتقاماً مـن الاحتلال العراقي عام 1990. قـال لي الدكتور بطّي: «شـعبنا لا يفهم ماذا يجري؛ لذا فهم يظنون أن الأمريكيين يتعمدون إحداث هذه الفوضـى»، كانت نظريات المؤامرة محاولة لفهم الأمور السـخيفة. حتى هو لم يكن يعرف ماذا يفكر. «لا نريد أن نصـدّق أن هذا غير مقصـود - القوة العظمى على سـطح الأرض تسـتطيع شـن حرب نووية». لم تكن فكرة أن التخطيط السـيئ، والالتزام غير الكامل، والإهمال هي السـبب وراء الفوضـى، فكرة يمكن تصـديقها ببساطة. كيف يمكن للعراقيين أن يدركوا أن مجالس الخبراء في واشنطن، حيث قدّم بوش العراق بصـفة مثال للمنطقة، كانت قد أسـهمت في الانهيار، بعد الحرب بقتل أي كلام عن بناء الأمة؟ كان التخريب المتعمد أمراً منطقياً أكثر.

عرّفني الدكتور بطّي بعدد من زملاء دراسته في كلية بغداد اليسوعية. كانوا يحاولون إنشاء منظمة تقوم على فكرة غامضـة بتحسـين الوعي الاجتماعي في العراق، عن طريق الاتصـال بشركاء في أمريكة. جلسنا في غرفة حارة جدًّا في الكرادة، منطقة الطبقة الوسطى، والمنطقة التجارية على الضـفة الشـرقية لنهر دجلـة: كان هناك مختصٌّ في الأمراض البولية اسـمه نعمت كمال، يشـبه إد أسـنر حين يعبس، ومهندس إطفاء ألطف خلقاً اسـمه محمد عباس. كان الدكتور كمال غاضباً من معاملة الأمريكيين له. فقد تمركزت ثلاث دبابات أمام المشفى

الذي يعمل فيه، وكان الجنود يقومون بتفتيشه وتفتيش سيارته، كل يوم، على الرغم من أنهم كانوا يعرفونه. «إنهم لا يفرّقون بين الطبيب والإرهابي». تم إطلاق النار على أحد أقاربه من بعيد، وابن جيرانه البالغ اثني عشر عاماً، حين كانا يقودان بشكل غير مقصود في شارع كان الجنود يطوقونه. وفي الوقت نفسه، كان الطبيب يريد مزيداً من الأمن من الأمريكيين.

أما المهندس عباس فقد شبّه وضعهم بوضع الفلسطينيين. «الجنود أنفسهم، طائرات الأباتشي نفسها، الطريقة نفسها في اعتقال الناس. العراقيون يزيدون عدائية؛ لأنهم يقومون بهذا الربط».

قال الدكتور كمال: «يلزم وقت كي تستقر الأمور، نحن نعرف ذلك، من سوء حظنا أن نعيش في هذه المدة من الغليان. لكن الناس مثلنا يعيشون في طبقة اجتماعية محافظة جدًّا. لدينا خوف لا شعوري من السياسة، لا نريد المشاركة. فالأمريكيون لن يقوموا بحمايتنا». كان العراقيون المثقفون المحترفون يختفون، بينما يخرج الآخرون -الفقراء والمتدينون والمسلحون- إلى الشوارع.

قال عباس: «كانت لدي مشاعر متضاربة في أثناء الحرب، كنت أريد أن يخسر كلا الجانبين. لا أحب الاحتلال الأمريكي، ولا أحب أن أعيش تحت حكم صدام».

سألت إن كانوا يخبرون الجيش الأمريكي إذا عرفوا معلومات عن نشاط تمرّد؟ لم يكن أي منهم مستعداً لذلك، ليس لمجرد الخوف من عمل انتقامي.

اعترف عباس :«إنها أيضاً معركتي ضد الوجود الأمريكي؛ لأكون موضوعياً».

نظر الدكتور بطّي الذي جمعنا معاً إلي بقلق فجأة واعتذر. كان يأمل ألا آخذ الموضوع بشكل شخصي. فأشرت إلى أنهم جميعاً لا يزالون يحاولون إقامة علاقات مع الأمريكيين.

قال الدكتور كمال أخيراً وهو يبتسم: «ما من محبة إلا بعد عداوة، ربما سنتعلم أن يحب أحدنا الآخر».

«اللجنة الإنسانية الدولية للسجناء والمفقودين» كتب على إشارة على جانب الطريق، ليست بعيدة عن مقر المخابرات العسكرية الذي تعرّض للقصف في الكاظمية، في حي

قديم في شمال المدينة، فيه سوق مشهورة لمحال غولدسميث، وأحد المراقد المقدّسة للمسلمين الشيعة. كانت اللافتة تشير إلى بناء من طابقين، كان فيه مكتب ومنزل الشيخ عماد الدين العوضي.

الفوضى التي أعقبت التحرير وقلبت حياة الكثيرين، أوجدت فرصاً أيضاً. في الحقيقة كان في العراق نوع من الوضع الثوري. أول وأسرع من تحرّك كانوا رجال الدين الشيعة الذين طال قمعهم في البلاد: فقد ملؤوا الفراغ في الطاقة والتنظيم، وسيطروا على المشافي والمدارس، وقدّموا الخدمات للفقراء، وفرضوا قانونهم الإسلامي على الحياة اليومية، بينما كان العراقيون العلمانيون والأطباء والمهندسون والفنانون، يتحركون في ذهول. كان الشيخ قد أمضى نحو عشر سنوات في سجون صدام، حيث شكل مجموعة سرية من السجناء. والآن بعد ذهاب صدام، أصبح رجلاً مهماً.

في 12 نيسان، سمع الشيخ أن مبنى السوق المركزية في حي المنصور الفخم يحترق. قبل الحرب كانت شرطة الأمن قد خزنت الملايين من ملفات السجناء في قبو المبنى؛ لحفظها. والآن كان البعثيون يحاولون تدميرها، فانطلق الشيخ ومجموعة من رفاقه، مسلحين بالسكاكين والعصي، عبر المدينة لإنقاذ الدليل على محاولة صدام الناجحة لتحويل العراق كله إلى سجن. كانت هناك مجموعات أخرى، تقاتل لامتلاك السجلات، منهم عناصر من ميليشيا أحمد الجلبي. استولى المؤتمر الوطني العراقي على ملايين الوثائق في أنحاء بغداد، لكن مجموعة الشيخ استطاعت أن تأخذ سيارات مليئة بالملفات والميكروفيلم إلى الكاظمية، مع قارئة ميكروفيلم شبه محترقة من نوع كانون. وفهم الشيخ أن هذه الوثائق في ملفات زهرية وخضراء لم تكن تمثل الماضي فقط؛ وإنما المستقبل أيضاً.

وهي الآن تملأ الخزانة المعدنية التي تصل حتى السقف العالي في مكتبه، وفي أكياس الحبوب تحت شجرة الموز في حديقته، وتخبز على السطح تحت الشمس. كان المزيد من الملفات يأتيه من أماكن مختلفة كل أسبوع. وهذه الملفات لم تكن إلا جزءاً صغيراً من السجل الكامل للسجن والإعدام الذي خلّفه النظام البائد. أخذ الجنود الأمريكيون

شـاحنات مليئة للتخزين المركزي. وقفت في مكاتب رابطة السجناء المنافسة التي أنشأها أفراد حزب الله (احترقت المجموعتان مناسبات سرقة الملفات)، في غرفة كبيرة مملوءة بوثائق غير مرتبة تصل إلى ارتفاع الخصر، وشعرت بالغثيان للكمية الهائلة منها. أنشأت أنظمة أخرى وسـائل للمراقبـة الداخلية موثقة بهذا التفصـيل والدقة، لكن حتى ملفات ألمانية الشرقية لا تروي قصصاً تعيسة كتلك التي ترويها ملفات المخابرات العراقية.

ملف: صالح عيسى علي

محكوم بالإعدام

الرقم المتسلسل: #58392669

جمهورية العراق، وزارة العدل، محاكمة

القسم: القلم السري

التاريخ: 16-1-90

إنه مرسل إلى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل. موضوعه الإعدام، بعد تلغراف مرسل من المكتب الرئاسـي 368# في 8-1-90، نرسل إليكم أمر إعدام الأشخاص المحكومين الآتية أسماؤهم:

1. كريم عيسى علي.

2. صالح عيسى علي.

3. خالد عبد الرحمن إسماعيل.

يجب إعدامهم شنقاً حتى الموت.

أطيب التحيات.

وزير العدل: أكرم عبد القادر علي.

كان على الجدران الخارجية لمبنى الشـيخ صـور للقطات بالأبيض والأسود لشباب، يبدو معظمهم من حقبة سـبعينيات وثمانينيات القرن العشـرين. كان الرجال والنساء يأتون إلى

المكتب من جميع أنحاء العراق ويمشطون السجلات التي رتبها أتباع الشيخ حسب الترتيب الأبجدي، آملين أن يكتشفوا مصير ابن مفقود أو قريب اختفى قبل عقدين من الزمن. وذات مساء، وصل طبيب من بعقوبة، وهي مدينة تبعد نحو ساعة إلى شمال شرق بغداد. اسمه يوسف إبراهيم، وكان مختص أنف وأذن وحنجرة - يحمل أعلى درجة تخصص في مجاله. جاء إلى بيته في ليلة من عام 1995 مسؤولون محليون في حزب البعث، بأوامر للطبيب أن يذهب إلى المشفى ويقوم بعملية إسعافية. كان على د. إبراهيم أن يقطع أذن شاب هارب من الجيش. «أخبرتهم أنه من غير الممكن أن أفعل ذلك ليلاً، وأنني غير مستعد لذلك نفسياً. فقالوا: عليك أن تقطعها ولو بأسنانك وإلا سنقطع أذنك». كانت تلك فكرة عدي، وفي الأشهر التي تم تنفيذها فيها، قبل أن يتحول عدي إلى أفكار أخرى، قطع الطبيب سبعاً وأربعين أذناً. «كنت أشعر بأنني غير موجود، أشعر بالذنب»، فسّر د. إبراهيم «لكنني أحاول أن أرضي نفسي؛ لأن الأمر لم يكن بيدي». كان قد أتى إلى مكتب الشيخ؛ بحثاً عن معلومات عن أخيه، وهو رجل مضطرب عاطفياً تم اعتقاله عام 1992 لشتم صدام. «أعتقد أنه لا يزال على قيد الحياة حتى السنة الماضية». وغادر الطبيب دون أن يجد ملف أخيه.

وفي اليوم نفسه، جاء أحد أصدقاء الشيخ المقرّبين الذين تعرّف عليهم في السجن لزيارته. كان طبيباً أيضاً، وكان ذا طبع هادئ، اسمه سعد بغدادي، وحين أخبرته عن طبيب الأذن، قال: «لو كنت أنا لما فعلت ذلك. ماذا لو أمرك أن تقتل هؤلاء الأشخاص السبعة والأربعين؟ هل تقوم بذلك؟» قال الدكتور بغدادي: لم يكن صدام ليصبح بهذه الوحشية منذ البداية، «لكن حين وجد أنهم يطيعونه، ازداد صدام قسوة بالتدريج. أنا آسف جدًّا، لكن لو لم يطعه أحد منذ البداية... في السجن عصينا أنا وغيري في كثير من الأمور».

قال الشيخ: «كنت أقرأ سبع عشرة ساعة كل يوم - هل تعرف معنى القراءة لسبع عشرة ساعة في اليوم؟ ولم أكن أستطيع العثور على أحد، لا ملك ولاسلطان، آذى الناس كما فعل صدام».

كان الشيخ في الأربعينيات من عمره، وكان قصيراً مستدير البطن، أسمر البشرة. كان دائماً يرتدي جبة سوداء، وقميصاً وبنطالاً أبيضين وخفّين مدببين، ويضع عمامة بيضاء

تشير إلى أنه شيعي لا ينحدر من أهل البيت. وعلى الرغم من أنه كان يخفي زوجه بشدة، وكان جبينه يحمل علامة داكنة من آثار الصلاة، وكان في مكتبه صورة لآية الله الخميني، فقد كان الشيخ رجلاً دنيوياً، شهوانياً بعض الشيء، ويحب النكات البذيئة. كانت اللحية الكثيفة والشفتان المليئتان والعينان الصغيرتان خلف النظارات ذات الإطار الأسود الثخين، والصوت الرنان تذكرني بآية الله آلن جينسبيرغ. كان غالباً يشير إلى أنه لا يترجم إيمانه بشكل متشدّد. مرة، حين كنا نتحدث عن الكلاب، قال: إن هناك نوعين من الكلاب يسمح باقتنائهما: كلاب الحراسة وكلاب الصيد. فقلت له: إن كلبي من النوع الصغير وليس لديه أي مهارات سوى الرفقة. هل هذا حلال أم حرام؟ ففكر لحظة. فقال لي «هذا ليس حلالاً ولا حراماً. هذا جائز».

استقبلني الشيخ في عدة مناسبات في غرفة جلوسه ذات اللون الأخضر الفاتح، حيث كنا نقضي ساعات ونتناول الشاي والغداء. بدأ حديثه: «أنا أحد ضحايا النظام»، وحين انقطع التيار الكهربائي، انطفأت مروحته، وتابع الشيخ، «ومن حقائق النظام الجديد أن الكهرباء قد انقطعت». جلس رافعاً رجليه على كرسي دوار من الفنيل، والعرق يتصبب من تحت عمامته، وشعرت أنني مرغم على الاعتذار عن الأمريكيين للوضع السيئ للخدمات في العراق.

ولد الشيخ عماد الدين العوضي في مدينة الحلة الجنوبية الوسطى لعائلة من الزعماء القبليين، ونشأ يدرس الدين مع الحوزة، المدرسة الشيعية للعلوم الدينية في النجف. كانت اطلاعاته الفكرية واسعة – المذهب الكاثوليكي، كتابات نوستراداموس، الشعر العربي، الفلسفة اليونانية (وكان يدرّس بلاتو وأرسطو لتلاميذه كل صباح) – كانت أفكاره الإسلامية تحمل سمة صوفية. لكنه التقى الخميني في النجف وأعجب به في أثناء مدة نفي آية الله في سبعينيات القرن العشرين. وكانت تلك المدة بداية انتشار واسع للنشاط السياسي الشيعي في العراق، الذي ألهم معظمه آية الله محمد باقر الصدر، وفي عام 1977، تم اعتقال الشيخ في مظاهرة في مدينة كربلاء المقدسة. وبعد سنة فرّ من السجن وهرب إلى الكويت (...). ثم سجن في بغداد حيث أمضى سنة من الاستجواب في مقرات الأمن العام قبل

المحاكمة. أوصى المحامي الذي عينته المحكمة بعقوبة الإعدام، لكنه حكم عليه بالسجن مدى الحياة. وقبل إرساله إلى سجن «أبو غريب» ضرب بالكابلات ثلاثة أيام. «أرادوا أن يذيقوني العذاب؛ ليعطوني فكرة عن العذاب؛ حتى أعرف أن هذا سجن إرهابي».

قضى الشيخ سبع سنوات ونصف في جناح داخلي خاص، يشترك بزنزانة بحجم غرفة جلوسه مع خمسين رجلاً آخر. كانت الزنزانة مزدحمة لدرجة أنهم كانوا يتناوبون في الاستلقاء والجلوس والوقوف؛ وكان على الذين يستلقون أن يستلقوا على جوانبهم. لم يكن هناك زوّار. «لم أرَ أحداً مدة سبع سنوات ونصف السنة. لم نكن نرى الشمس. ولم نكن نرى القمر». حتى الحراس كانوا يعاقَبون إذا لم يظهروا قسوة كافية. كانت الأقلام والأوراق والكتب ممنوعة.

مرة سأل د. بغدادي، زميل الشيخ في الزنزانة حارس السجن: «لماذا تمنعون هذه الأشياء؟».

فقال الحارس: «نريدكم أن تخرجوا من هنا بعد قضاء السنوات، وقد نسيتم ليس علمكم فقط، بل أسماءكم أيضاً».

«لكن يوجد هنا كثير من السجناء المكتئبين. وهذا سيساعدهم».

«نحن نريدهم أن يكتئبوا. هذا هو هدفنا».

ومع ذلك كان الشيخ يذكر سنوات سجنه بحنين واضح، وحين استمعت إلى قصصه عرفت السبب في أن الشيعة العراقيين كانوا أول من انتهز الفرصة بهدف واضح. أصبح الشيخ قائداً في السجن. كان يسوّي الخلافات التي تظهر على الطعام وأماكن النوم وحتمية أن السجين النائم يمكن أن يحتضن الرجل الذي بجانبه، معتقداً أنه زوجه. وحين كان الحراس يوزّعون البرتقال في أعياد حزب البعث، كان الشيخ يحتفظ بالقشور؛ ليعالج مشكلات المعدة عنده وعند الآخرين، ويوزع البذور على أنها دواء نفسي للأرق. ألّف الشيخ كتاباً في علوم الدين على أكياس النايلون باستخدام حواف الأنابيب المكسورة والماء المركز.

وحين كان الجواسيس البعثيون المعروفون ينامون، كان يعظ مجموعته السرية. وقد التقيت عن طريق المصادفة رجلاً اسمه عبد الجبار الدويش كان في الزنزانة نفسها مع الشيخ في ثمانينيات القرن العشرين. كان عمر الدويش واحداً وأربعين عاماً، وكان من العراقيين النادرين، حيث كان شعره خالياً تقريباً من الشيب. قال لي: «في السجن كنت سعيداً؛ لأنني عشت في ظل الإسلام». كان الشيخ هو الذي علّمه هو وبقية السجناء عن ولاية الفقيه، في ظل الشريعة الإسلامية.

أجبر الضغط الدولي بعد حرب الخليج الأولى صداماً على إطلاق الآلاف من السجناء السياسيين، وكان الشيخ من بينهم. فأمضى العقد المقبل تحت الإقامة الجبرية في بيته، وقضى عاماً آخر في السجن؛ لرفضه عرضاً مالياً مقابل دعم النظام. وقبل أيام من الحرب الأخيرة، حذّره بعض أتباعه من السجن من أن الحكومة تخطط لقتله. فالتجأ إلى بيت أخته حتى سقوط بغداد.

كان الشيخ واقعياً تماماً بشأن الأمريكيين. لم يكن يعدّهم لا محرّرين ولا محتلّين، وإنما حقيقة من حقائق الحياة التي يمكن أن تكون جيدة أو سيئة. كان يريدهم أن يغادروا بسرعة: «هناك قول بأنك حين تزور الناس مرة في الشهر تكون محبوباً لهم كالقمر». وفي تلك الأثناء، كان قد أسس علاقات طيبة مع قائد الجيش المسؤول عن أمن منطقته، وأخذ منه ما استطاع الحصول عليه: مولّداً كهربائياً معطلاً.

كان لدى الشيخ برنامج عمل: أراد مني أن أعرّفه إلى أشخاص مهمّين من الأمريكيين. في لقائنا الأول سألني: «هل جاؤوا إلى هنا للزيارة أم ليضعوا أيديهم على البلاد؟» لم تعجبه إجابتي وقال: «أنت تتهرب من السؤال». وبعد ذلك، حين وصف لي شريط الفيديو الخلاعي للديبلوماسي السوداني الذي أغوته إحدى العميلات البعثيات إلى عش الحب، سألته كيف حصل على نسخة منه، فقال: «لدينا طرق خاصة بنا». فأشرت إلى أنه هو الذي يتهرب من السؤال الآن. ابتسم الشيخ عبر غيمة من دخان سيجارته: «أنت علمتني ذلك».

وفي لقائنا الثاني، رحّب بي وقبّلني على خدّي وقال: «أنا معجب بك. أشعر أنني أعرفك منذ سنوات». وفي اللقاء الثالث، في جنازة أحد أقاربه في خيمة في حي شيعي فقير، أعطاني

خاتماً فضيّاً كتب عليه آية من القرآن، قال الشيخ: «هناك أجسام خفية تسبح في السماء، ربما تكون أرواحنا الخفية قد التقت في السماء قبل أن نلتقي بعضنا، ولهذا نحن نتفق».

كان لدي برنامج عمل أيضاً. فقد كان عمل الشيخ ينير ظل الماضي الملقى على العراقيين بشدة. لكنه جعله أيضاً رجلاً يأتي إليه العراقيون بمشكلاتهم وطلباتهم. على الرغم من أنه ينكر أن لديه أي طموحات سياسية. أردت أن أعرف ماذا يريد، ما فكرته عن مستقبل العراق. كان الشيخ حريصاً على ألا يدعني أعرف. كانت طريقته في النظر إلي بطرف عينه، وحاجباه مقوّسان والتسلية على فمه، توحي بأن علاقتنا ستتسم بالإغراء والاستغلال.

في الليل كنت أتوقف غالباً عند فندق اسمه الحمراء في جنوب بغداد. كان كباقي الفنادق، يعج بموظفي المخابرات الذين اعتادوا الفظاظة، وكانوا يتابعون الزبائن قبل الحرب، ويحاولون الآن أن يعدّلوا وظائفهم بوصفهم نادلين طبيعيين وموظفي استقبال. كان فندق الحمراء مكان استراحة للصحافيين الغربيين، ورجال الأعمال العراقيين، وجنود السفارة الأسترالية التي تقع بجوار الفندق خارج ساعات العمل. أما أنا، فما كان يهمني في فندق الحمراء هو حوض السباحة. كان شعور الغطس تحت الماء بعيداً عن الشمس وضوضاء المدينة إلى هدوء الماء الممزوج بالكلور هو أقرب شيء إلى المتعة في العراق.

ذات مساء، رأيت رأساً مألوفاً أصلع يتحرك خلف الكراسي على الطرف الآخر من المسبح. كان ذلك الشخص هو كنعان مكية.

كان قد جاء من الكويت في نيسان. وكان يقيم في الفندق في انتظار أن تقوم كتيبة للشؤون المدنية بإخلاء البيت الذي بناه والده حديثاً على نهر دجلة، فيما يسمى الآن بالمنطقة الخضراء، وقد استولى عليه النظام عام 1972. خططنا أنا ومكية للاجتماع. كان من الغريب أن أراه ثانية، ويذكرني بمحادثاتنا الراقية في كامبريدج ولندن قبل سنوات.

كان قد ألقى نفسه بتهوّر في مشروع جديد. هذا المشروع يسمى مؤسسة الذكرى، وكان من المفترض أن تكون نوعاً من ياد فاشيم - نصب تذكاري للهولوكوست، بالإضافة إلى متحف وأرشيف لثلاثين عاماً من حكم حزب البعث. بمساعدة نقيب مسؤول عن الشؤون المدنية، كان مكية قد كشف كنوزاً دفينة ضخمة من ملفات الحزب، مع مكتبة خاصة لمؤسس

الحزب، ميشيل عفلق، تحت قبره، الذي كان من المتوقع هدمه. قام مكية بجرأة -شأنه شأن الشيخ ولكن بأفكار أخرى- بنقل سبعة ملايين ورقة إلى منزل والده، بما فيها حافظات أوراق الشائعات، وسجلات دقيقة للثقافة السياسية لكل طالب في الثانوية في العراق، وأرشيف سري للغاية اسمه «اليهود». كان يحاول جاهداً أن يمنع سلطة الاحتلال من تمزيق وتدمير آلاف التقديرات الفخمة لصدام وحزب البعث في أنحاء بغداد والعراق. كان طموحه الأكبر -كان مشغولاً بالتفاوض مع سلطة الاحتلال- هو إنشاء متحف في متحف النصر نفسه، والسيفين المتصالبين لأرض الاستعراضات العسكرية، التي كتب عنها كتاباً كاملاً قبل أكثر من عقد من الزمن.

وفي يوم جهنمي الحر، أخذني مكية في جولة إلى النصب مع مصطفى القديمي، صديقه من لندن، واثنين آخرين من المغتربين العائدين المشتركين في مشروع الذكرى. كانت أرض الاستعراض نفسها بطول ربع ميل تقريباً، وفي منتصف المسافة، ارتفع ذراعان يمسكان بالسيوف من الرصيفين لمسافة من كلا الجانبين، بحيث يشكلان قوساً. وإذا اقترب المرء يرى أن الذراعين يمثلان تصويراً لذراعي صدام مكبرة أربعين مرة، بحيث كانا كبيرين جدًّا وتبدو فيهما الأوعية الدموية والشعر. وقد علقت شباك مصنوعة من كابلات فولاذية من مقابض السيوف، التي تم تشكيلها من الأسلحة المصهورة وتتقاطع على ارتفاع مئة قدم قبالة الشمس الساطعة. وقد تدلت من الشباك عشرات الخوذات لجنود إيرانيين قتلى، تم لحمها معاً بشكل عنقود عنب. كانت الخوذات مختارة بعناية، بحيث كانت كثير منها مثقبة بالرصاص. وفي قاعدة التمثال، كتب هذا النص من خطاب صدام عند الإعلان عن المشروع عام 1985: «من أسوأ ما يمكن أن يحدث لأي شخص أن يمر تحت سيف ليس له، ويكون في وضع خارج عن سيطرته. باستخدام سيوفهم سطّر العراقيون في التاريخ سجلاً من البطولة، وهم يدافعون عن أرضهم. لقد ذبحت الغزاة وقطعت رؤوسهم وصنع من رؤوسهم المقطوعة قوس النصر، وها نحن نمرّ تحت عين الله، الذي سيحمي العراقيين من الأذى ولايرحم الأشرار». خطّ الجنود الأمريكيون شخبطات على بعض الخوذات الإيرانية المثبّتة بالأرض: «بف2 إيفانز كيا 25 - 03 أيار سنذكر 977 م ب سي أو».

قال مكية: «رأيت رسومات، وعرفت أنها فاحشة، لكن بصراحة لم أعرف كم هي فاحشة. لكن أسوأ شيء هو خوذات الموتى التي ندوس عليها. إن ذلك يبلغ مبلغاً جديداً من الفحش، إذا سمحت بالتناقض».

قال حسن منيمنة، وهو صديق لبناني لمكية من كامبريدج: «يدّعي صدام أن له وضعاً قدسياً»، كان التناظر الصارم للتمثال يغمّ منيمنة؛ كان الشكل فاشيّاً، كما قال، وكان يأمل أن ينزل أحد السيفين أو يستبدل؛ لكي يدمّر التأثير الفخم الذي يعطي مظهر العظمة.

قال عمار الشهبندر، وهو مغترب شاب التقيته في لندن مع مصطفى: «هذا أكثر مكان يذكّر بالبؤس، المكان نفسه الذي شعر فيه بقوته العظمى، لقد جعل أحد أقدس الأماكن في بغداد وأكثرها حرمة متحفاً عاماً. لا تتخيل كم تشعر بالارتياح حين تجلس في المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه ويشاهد الجنود».

أراد مكية أن يترك النصب كما هو. كان يسير مرتدياً قميصاً أبيض قصير الأكمام وبنطالاً داكناً، وكان يتحدث بنبرة اهتياجية في الحر، بينما كنا نحن الباقين نجرجر أنفسنا خلفه. يمكن أن يكون هنا حديقة للأطفال، مطعم، رحلات مدرسية. يكلّف تحويل الغرف الرخامية الضخمة للقصر الذي يقع خلف المدرّج إلى متحف ومكتبة بين ثلاثين وخمسين مليون دولار. يمكن أن تضم إحدى الغرف رسومات وتماثيل من حقبة البعث، وأخرى وسائل التعذيب التي كان النظام يستخدمها، قال مكية: «كان لديهم آلة فرم، هذا ما قاله لي بريمر. إنها ليست أسطورة مدنية».

سيكون المشروع رؤية مختلفة للتاريخ العراقي: ليس تكريماً للإنجازات العظيمة للماضي البابلي والعربي والإسلامي، وإنما حساب متواضع للعقود الأخيرة التي قام فيها العراقيون بأمور مروعة تجاه بعضهم. قال مكية: «في النهاية وعلى المدى البعيد، إنه حول إعادة تشكيل إدراك العراقيين لأنفسهم، بحيث يوجد أساساً لمجتمع مدني متسامح قادر على التحول إلى ثقافة ليبرالية ديمقراطية. الفرضية هي أن نسيان الماضي، أو السعي إلى نوع من العمل بوصف ناقص للماضي، يمكن أن يؤدي في الواقع على المدى البعيد إلى تكراره بأشكال

مختلفة. نحن بحاجة إلى التعامل معه، ومواجهته بصراحة؛ حتى تستطيع الأجيال القادمة أن تطهّر نظامها منه».

بالإضافة إلى هذا المشروع التذكاري وخططه لاستعادة بيت عائلته في المنطقة الخضراء، كان مكية يأمل أن يحصل على منصب في اللجنة التحضيرية للدستور الجديد. لقد وضعته عودته إلى بغداد بعد خمس وثلاثين سنة في قبضة أفكار جديدة، وكان حرفياً منقطع النفس بطاقة عصبية. كانت هناك حالة غريبة مستقرة في مكان ما في صدره، تشنج مزمن يجعله يحزق في وسط الجملة. أتساءل إن كان التشنج غير الإرادي جزءاً من كفاح، لا واعٍ، لمقاومة إدراك أنه لم يكن يريد أن يواجه. كان مكية مسكوناً بأفكار عن الماضي والمستقبل، أردته أن يعترف بأن الحاضر عبارة عن كارثة. لم تكن عبارات مثل «مجتمع مدني متسامح» و«ثقافة ديمقراطية ليبرالية» تلهمني في بغداد في صيف 2003. تبدو لي عبارات مجردة في الفوضى الطاحنة للمدينة، وكانت تجعلني غاضباً منه ومن نفسي؛ لأنني كانت لدي أوهامي الخاصة.

كان مكية يتعلق بفكرة أنه لو كان الأمريكيون قد أحضروا معهم عدة آلاف من المغتربين العراقيين المسلّحين، كما نصح هو وجلبي وغيرهما، لكان كل شيء قد سار على ما يرام، لكن مع ذكر المرارة التي كان معظم العراقيين «في الداخل»، كما كان يطلق عليهم، يتحدثون بها عن المغتربين الذين جاؤوا على ظهور الدبابات الأمريكية، واستولوا على الأملاك، وخدعوا الناس من أجل السلطة السياسية، كنت أجد أن هذه الحجة غير مقنعة. لقد بدت على أنها عذر لكل ما أساء فهمه. لم يكن العراقيون، كما تبيّن، كما كان يعتقد. لم يكونوا مثل كنعان مكية.

عاش المغتربون العائدون في بغداد في عالم منعزل. كانوا يذهبون إلى حفلات العشاء التي يقيمونها، ويجولون بسهولة داخل المنطقة الخضراء وخارجها، كانت لهم صلات بسلطة الاحتلال، وكانوا ينتجون خططاً ومشروعات وأفكاراً حالمة لتغيير المجتمع العراقي، كان الحدث الذي سقط كقنبلة في حياة العراقيين الآخرين، فحطّم الدولة وتركهم مصدومين وسط الدخان والحطام، للمغتربين فرصة حياتهم وتحقيقاً لحلمهم.

قلة منهم كانوا يرون حقيقة بغداد. ذات ليلة، تناولت العشاء في مطعم مفتوح قرب النهر في جنوب بغداد مع مصطفى القديمي وعمار الشهبندر، المغتربَين اللذين كنت قد التقيتهما في مؤتمر المعارضة العراقية في لندن في شهر كانون الأول. كان مصطفى يعمل في شبكة الإذاعة والتلفزيون التي أنشأتها سلطة الاحتلال، أما عمار، الصحفي المستقل الذي جاء عبر شمال العراق مع قوات البشمركة الكردية في أثناء الحرب، فقد كان يدير مكتب بغداد لمؤسسة شملت برامجها إعادة الأهوار الجنوبية التي كان صدام قد جففها. كان كلاهما يساعد مكية في مؤسسة الذكرى. وكانا قد تركا الأمان والراحة وزوجيهما في لندن وجاءا إلى العراق بآمال كبيرة. لكن ما إن جلسنا وطلبنا المسكوف -وهو سمك من نهر دجلة مشوي- حتى بدأا يبوحان لي بما في عقليهما.

قال عمار: «كنا نعيش حلماً، كانت فكرتنا عن العراق عكس الحقيقة. كنا نعتقد دائماً أن العراقيين تنقصهم المعرفة لكنهم يملكون الإرادة، فإذا قدّمنا لهم المعرفة والخبرة، سيغيرون من وضعهم؛ لأن لديهم الإرادة. لكننا اكتشفنا العكس في الواقع. فالعراقيون يملكون المعرفة. إنهم يعرفون ما هو صحيح وما هو خطأ. لكن أتعلم؟ إنهم لا يهتمّون. إنهم متعبون جدًّا، ومشغولون بلمّ شتات أنفسهم. ليس لديهم الإرادة لفعل ما هو صحيح. إنهم يعلمون أن عليهم ركن السيارة بهذه الطريقة» -بشكل منظم حين يصطفون على محطات البنزين- «لكن من يأبه؟ ليس لديهم سبب كافٍ للمحاولة».

وصف مصطفى الجرائم التي تحصل كل ليلة، ولا يتكلم عنها أحد، وكان معظمها جرائم قتل انتقاماً من البعثيين، كان يعرف رجل دين شيعياً معروفاً يقصده الناس كل يوم لطلب إذن ديني بالقتل. كانت العصابات المجرمة قد بدأت باختطاف الأساتذة الجامعيين أو العراقيين الأثرياء وطلب الفدية. قال مصطفى: «كان تفكير الناس يدهشني حقًّا، كنت أعرف أنه سيئ، لكنني لم أعرف قط أنه بهذا السوء».

قال عمار: «إنهم معتادون على البعث والخوف والموت والإرهاب، لدرجة أنهم لايرون الميزات الآن. حين تخبرهم أن لديهم فرصة عظيمة للتعبير عن أنفسهم، لا يأبهون. فذلك

لا يعني لهم شيئاً، ليس لديهم ما يعبرون عنه، ليس لديهم رأي». ظهرت ابتسامة خبيثة على وجهه. «هل رأيت The Truman Show؟ يظن العراقيون أنهم هذا الرجل، وأن كل ما حولهم مؤامرة. لكن الفرق هو أنهم يظنون أنهم قد اكتشفوا المؤامرة».

قدّموا لنا السمك، لكنني كنت الوحيد الذي بدأ يأكل.

قال مصطفى: ليست المشكلة في العراقيين هنا فقط، بعيداً عن ذلك. «فحين وصل بريمر، كانت الكهرباء تعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم. ثم بدأت المدة تخفض». والمتعهدون الأمريكيون الذين يعملون في شبكة الإعلام، كانوا يحصلون على مبالغ كبيرة زيادة ولم تكن لديهم الكفاية المطلوبة. كانت البرامج سيئة جدًّا ولا يتابعها أحد؛ كانت قناة الجزيرة وقناة العالم الإيرانية قد كسبتا حرب الفضائيات. وكان الأمريكيون خائفين من الفشل، وكانت النتيجة أنهم فشلوا في تحقيق أي شيء؛ وكان كثير من الداعمين المحتملين قد انقلبوا عليهم. ثم كانت تصرفات المغتربين العائدين. رأى مصطفى مرة رجلاً كان يعرفه في لندن يركل موظفاً صغير الرتبة من النظام السابق، فعلّقت صديقة لمصطفى: «لقد رأيت عدياً الآن من جديد، لكن هذه المرة في مشروع ديمقراطي». أما عن أحمد الجلبي، الذي كانا يعدّانه الرجل الأنسب لقيادة العراق في اتجاه ديمقراطي، فقال عمّار: «حين عاد إلى لندن كان يظن أنه سيعاد إلى العراق، ويوضع في السلطة؛ لأن البنتاغون يدعمه، وقد قلنا له مراراً وتكراراً: لا تتكئ على ذلك. لكنه لم يقتنع. وهذا هو الخطأ الثاني: إنه محاط إما بالمغفلين أو بالانتهازيين».

حان دور مكية بالحديث، وقد ذكرت أنه كان قد أخبرني أن 95% من العراقيين كانوا سعداء بوجود الأمريكيين هنا.

قال عمار: «يعيش كنعان على كوكب آخر، ليس لديه دليل، فهو يقود سيارته إلى المنطقة الخضراء ويعود منها إلى الفندق». كان عمار قد حاول أن يفتح عيني مكية، فقال له: إن عمال النظافة في بغداد يغنّون، وهم راكبون داخل شاحنات النفايات، إنهم يحبون النفايات. لكن مكية لم يصدقه.

أخذنا سيارة مصطفى وأسرعنا في الشوارع باتجاه الفندق، كان هناك حظر تجوال في الساعة العاشرة، ولم يكن لدينا كثير من الوقت؛ كان مصطفى يقيم في بيت أخته في حي خطر مناصر لصدام في غرب بغداد. كانت الشوارع مظلمة وشبه فارغة، ولم يكن هناك شرطة في أي مكان. كانت السيارات تقترب منا بأقصى سرعة، وكانوا يشكّون فينا كما كنا نشكّ فيهم. كانت سيارة شقيق مصطفى، وهي من طراز BMW قد أصيبت بطلقات نارية قبل عدة أيام، وهو يعتقد أن ذلك كان مقصوداً. «هل تعلم يا جورج، أن فدائيي صدام قالوا بالأمس إنهم سيقتلون الأشخاص الذين يعملون مع الأمريكيين. كان هؤلاء هم الإرهابيين شبه العسكريين الذين تدربوا على يد النظام السابق. «أنا أفكر في الموت كل يوم».

ظهرت واجهة الفندق الذي كنت أقيم فيه. فشعرت بالارتياح.

تمتم عمار في المقعد الخلفي: «أنا أقول جملة مراراً لزوجي، لا تخافي أبداً من صدام، بعد أن هزم في أذهان الشعب العراقي».